أبو الحسن علي الحسني الندوي

منهج أفضل في الإصلاح

للدعاة و العلمـــاء

ملتزم النشر و التوزيع
المجمع الاسلامى العلمى ـ ندوة العلماء
لكهنو (الهند)

من مطبوعات المجمع الاسلامى العلمى

رقم — ٥٠

المطبعة الندوية (مؤسسة الصحافة و النشر)
ندوة العلماء ـ ص . ب ٩٣ ـ لكهنؤ (الهند)



كلمة الناشر

هذه الرسالة فى الأصل محاضرة ألقاها سماحة الشيخ السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى فى شعبان سنة ١٣٨٩ه فى قاعة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة أمام طلبة الجامعة و تلاميذ كلية الدعوة المرشحين للدعوة الاسلامية فى أفريقيا و غيرها من القارات ، و كان حفلا مشهوداً حضره أكبر عدد من الطلبة ، و أكثر أساتذة الجامعة ، وكبار المسؤلين ، وقد جاءت فى هذه الكلمة المرتجلة لفتات عميقة و ملاحظات دقيقة عن تاريخ الدعوة الاسلامية و سيرها و تجاربهـا فى الهند ، لا يجدها القارىء إلا فى كتب التاريخ المبسوطـة ، منثورة مبعثرة ، عابرة غامضة ، قد لا ينتبه لها ويعرف قيمتها .

و هى كلمـة مستفيضة أخذنا منها ما يتصل بمنهج الاصلاح و الدعوة فى الحكومات الاسلامية ، و هو لب لباب الموضوع و جوهر المحاضرة ، و قد يمكن الاستفادة منها ــ إذا حالفنا التوفيق ــ فى ظروفنا المتغيرة و تجاربنا التى مررنا بها فى عهدنا الأخير .

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

اختار الله للدعوة الاسلامية فى الهند أصحاب قلوب رقيقة، لأن الشعب الهندى هو رقيق الشعور قوى العاطفة، يفعل فيه الحب و الحنان، ما لا يفعله المنطق و البرهان، فاختار الله للدعوة الاسلامية فى الهند، أصحاب قلوب لينة خفاقة، و عيون دامعة فياضة، هؤلآء الذين كانت عيونهم تدمع لكل مفجوع منكوب، و كانوا يؤون كل طريد وشريد، ويلجئون كل من أقصته الآسرة و طردته القرية.

كان الفرق بين البرهمى وغير البرهمى أكبر من الفرق بين الانسان و الحيوان، إن الكتب التى تناولت هذا الموضوع، (النظام الطبقى والاجتماعى فى الهند) كثيرة (١)، ثم كان غير البراهمة طبقات، ثم هنالك سيدات مات أزواجهن فكن يحرقن أنفسهن مع أزواجهن وكان ذلك من العادات التى تفردت بها الهند.

---

(١) ليراجع للتفصيل كتابا المؤلف « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » و « السيرة النبوية ».

فكان أولئك الربانيون يلجئونهم فى ملاجئهم العلمية والروحية ، يطعمونهم معهم، ويجلسونهم على مائدة واحدة ، ما كان هنالك من المألوف أن يؤاكل إنسان إنساناً ، و لا يزال هذا فى الهند ، إذا سافرتم فى القطار ترون صديقين من غير المسلمين يتحدثان و يتلاطفان ، فاذا حضر الطعام صرف هذا وجهه إلى الغرب ، و هذا وجهه إلى الشرق ، بدأ يأكل هـــذا و بدأ يأكل ذلك ، كأنه لا لقاء بينهما ، فهؤلاء الدعاه و المربون كانوا يعـاملون أولائك اللاجئين معاملة الأولاد وكانوا يجلسونهم على مائدة واحدة ، ويفضلونهم على أنفسهم و أولادهم ، وبذلك انتشر الاسلام انتشاراً هائلا فى هذه البلاد التى تشبه قارة .

و كانوا مع هذا الزهد و الابتعاد عن قبول الصلات الملوكية ، يشرفون على الحكومة و يراقبونها من بعد ، كالنار يصطلى بها الانسان و يستدفىء بها ولا يمسها فتحرقه ، و كان ذلك إلهاماً من الله تعالى .

أنا أومن بأن الداعية المخلص ، لا يكون داعية إلا

إذا كان ملهما مؤيداً من الله ، فكانوا يراقبون الدولة و يراقبون اتجاهاتها و ميولها ، و يرون هل المجتمع الاسلامى إلى خير أم إلى شر، و إلى صلاح أم إلى فساد ، وهل هناك اتجاه موافق للاسلام أم معارض للاسلام ؟ فاذا كان هناك اتجاه معارض للاسلام جروا الحبل من بعيد وباحتياط ، و أشاروا على الملك بما هو صالح للعباد والبلاد ، وبما فيه تأييد للدين و تقوية للسلمين ، وقد تكون لهم يد خفية فى اختيار ملك أو عزل و نصب .

فاذا سنحت لهم فرصة لكلمة حق عند سلطان جائر ، كانوا من أفصح الناس و أشجعهم ، أحكى لكم قصة واحدة :

إن محمد تغلق عرف فى تاريخ الهند بالجبروت و الطغيان — بل بالجنون و الهوس — و يسمى فى تاريخ الهند « السلطان العاقل المجنون » إنه كان رجلا علامة ، و هو أول ملك من ملوك الهند اطلع على مؤلفات شيخ الاسلام ابن تيمية و أعجب بها ، إنه كان فى آخر القرن الثامن و كان شديد الانكار على المنكرات و البدع ، و قد عسكر

مرة بقرب عالم ربانى اسمه الشيخ قطب الدين منور ، و جاء العلماء و الشيوخ يسلمون عليه ، ولزم الشيخ بيته فلم يأته ، و غضب الملك و طلبه إلى دهلى عاصمة البلاد ، ولما حضر البلاط و دخل الديوان رأى الأمراء و الوزراء و الحكام و رجال البلاط و اقفين سماطين (١) متخشعين مسلحين ، فى هيئة تنخلع منها القلوب ، و كان معه ولده نور الدين و كان حديث السن لم يزر بلاط الملك فى حياته ، ففزع لهذا المنظر الغريب و امتلأ رعباً ، فناداه الشيخ قطب الدين بصوت عال قائلا : يا ولدى العظمة لله !، يقول نور الدين : إنى استشعرت فى قوة غريبة بعد هذا النداء ، و زالت الهيبة من نفسى و ذابت ، و بدأ الجميع عندى كأنهم قطيع من ضان أو معز ، و سأل الملك الشيخ و عاتبه قائلا : « إننا مررنا بزاويتكم فلم تشرفونا بزيارتكم و موعظتكم » فأجاب الشيخ : إن هذا الفقير لا يجدر بمقابلة الملوك ، إنه يعيش فى عزلة ويدعو للملك و لجميع المسلمين ، فعليكم أن تعذرونى فى هذا الأمر ، و بعد انصرافه قال الملك لوزرائه : إنه

---

(١) أى صفين متقابلين .

صافح كثيراً من الشيوخ و العلماء فكانت أيديهم ترتعش خوفاً و إشفاقا ، أما هذا الشيخ فما وجدت فى كفه ليناً و ضعفاً ، و ما رأيت فى يده ارتعاشاً ، بل صافحنى بقوة و حرارة زائدة و اعتزاز نفس .

و قدم إليه الملك مأة ألف « تنكة » (قطعة ذهب) فقال الشيخ سبحان الله تكفينى أقتان من أرز وسمن بفلس واحد ، ماذا أفعل بهذا المال الكثير ؟ و لكن قيل له إن الملك يسخط إذا لم يقبل هذه الهدية وينقم منه ، فقبل الشيخ ألفى روبية و قسمها بين إخوانه و أصحابه و ذوى الحاجة ، هذه قصة من القصص الكثيرة (١) .

و الآن أتحدث إليكم عن دور الاصلاح و التنظيم ، لما رسخت الحكومة الاسلامية فى الهند و انتشر الاسلام انتشاراً واسعاً فى جميع أنحائها ، تأثر المسلمون بمواطنيهم الهنود ، فانتقلت إليهم عادات الجاهلية ، و انتقلت إليهم بعض العقائد الخرافية ، و تسرب إليهم الشرك و البدع

(١) نقلنا القصة بطولها من كتاب المؤلف « المسلمون فى الهند » إتماما للفائدة و إكمالا للحديث .

و تغلغلت فيهم الفلسفة اليونانية و الفلسفة الهندية القديمة ، وعن طريق هاتين الفلسفتين انتقلت إليهم اتجاهات ونزعات لا يقبلها الاسلام ، فهنالك جاءت مرحلة الاصلاح والتنظيم ، و لما جاءت هذه المرحلة ، قيض الله فى هذه المرحلة الدقيقة رجالا غيارى متألمين للاسلام ، وهبوا نفوسهم و أرواحهم و مواهبهم و ذكاءهم لقيادة المسلمين فى هذه البلاد .

و اتفق أن أكبر ملك عرفه تاريخ الهند ، هو الملك المغولى السلطان جلال الدين أكبر بن همايون بن بابر مؤسس الحكومة المغولية فى الهند ، اتجه اتجاهاً معارضاً للاسلام ، ونشأ فيه عداء للاسلام و عناد شديد للدين الاسلامى و صاحب الرسالة عليه الصلاة و السلام ، و عطف شديد على البراهمة و عقائدهم و عاداتهم .

هذه مرحلة أدق من مرحلة الجاهلية المحضة ، إذا كانت بلاد لا تعرف الاسلام فقضيتها قضية سهلة ، إذا تعرفت بالاسلام فقد تعرفت بالاسلام الحقيق و الدين الخالص ، ولكن إذا ثار الملوك و الحكام على الاسلام ،

و انحرفوا عن الجادة و ارتدوا عن الاسلام أو عارضوه ، فهنا العقدة الكبرى .

إن « أكبر » كان أولا مغرماً بدراسة الديانات ، كان من سوء حظه أنه كان أمياً أو شبه أمى ، لم تسمح حياته الخاصة بدراسة و ثقافة — و لكن مع ذلك عنده غرام بالمقارنة بين الديانات — و الانسان إذا كان جاهلا وليست عنده الوسائل الكافية للمقارنة الأمينة ، والوصول إلى النتائج الصحيحة ، فهذه محنة عظيمة ، و هذا الرجل كان يجمع بين طبيعتين متناقضتين ، جاهل ولكنه كان مفرط الذكاء ، سريع الانفعال عصبياً ، و مغرماً بالمقارنة بين الديانات ، فجمع علماء أهل السنة و علماء الشيعة و علماء الطوائف الاسلامية التى انحرفت عن الاسلام ، وعلماء البراهمة و البوذيين والمجوس و المسيحيين ، و كان يثير موضوعاً خلافياً يناظر فيه هؤلاء العلماء فكانوا يتناقرون كالديك و يتناطحون كالتيوس ، وكان يتفرج على ذلك ويتسلى به ، كما كان الملوك فى العصر القديم يتفرجون على قتال التيوس و بعض الطيور ، هذه المناظرات

قد غرست فى قلبه الشكوك و صار ينسلخ عن الاسلام رويداً رويداً حتى انسلخ تماماً .

ثم العامل الثانى الذى أثر فيه وعدل به عن الاسلام، هو حب العلماء الزائد للدنيا و تنافسهم فى الجاه و المال ، كان فى بلاطه علماء يعتبرون من كبار العلماء فى عصره ، و لكنهم مع الأسف الشديد ، كانوا متنافسين تنافساً شديداً فى الجاه ، و كان كل واحد يريد أن يستأثر بالملك و كان بعضهم ادخر مالا عظيما ، و كان بعضهم استخرجت من مقبرة أسلافه لبنات من ذهب كان قد خبأها ، فلما اطلع هذا الرجل على هذه المناظرات و اطلع على مواضع الضعف فى هؤلآء العلماء الكبار ، الذين كان أحدهم المحدث الأكبر و الآخر قاضى القضاة و المفتى الأكبر ، رأى أنهم لصوص الدنيا ، و أنهم لا يقلون عن عباد الدنيا فى حب المال ، فانسلخ عن الاسلام .

و أقول لكم — أيها الاخوان — عن تجربة و اختبار ، إن الذى يرتد عن الاسلام يكون أكثر عناداً للاسلام ،

و أكثر معارضة للاسلام و المسلمين من الذين ليس لهم عهد بالاسلام ، و من أتباع كل ديانة ، مسيحيين كانوا أو يهوداً ، و هذا الذى تشهدونه اليوم فى بعض البلاد العربية و الاسلامية ، التى يحكمها الذين ولدوا فى الاسلام ونشأوا فى بيت مسلم و فى بيئة مسلمة ، ثم كرهوا الاسلام و أبغضوه لتأثير أجنبي أو بفعل ثقافة أو فلسفة ، فهم دائماً أشد عناداً للاسلام من الهنادك و المجوس و المسيحيين .

و نعود إلى القصة فنقول ، إن « أكبر » عادى الاسلام عداءاً شديداً ، حتى يروى عنه أنه كان لا يستطيع أن يسمع اسم محمد، كانت تثور ثائرته إذا سمع هذا الاسم الكريم ، فكان لا يملك نفسه ، و قد أصدر الأوامر الشديدة بأن كل من سجل عليه أنه ذبح بقرة فانه يقتل ، إنه أحل الخنزير و أحل الخمر ، و لكنه حرم ذبح البقر ، وحرم على رجال بلاطه أن يسموا أولادهم محمداً أو أحمد .

هذه فترة دقيقة جداً ، تقرر مصير الهند و تقرر مصير المسلمين فى هذه البلاد التى فتحوها بدمائهم ، هذه البلاد

التى هجروا فيها و فى سبيلها أوطانهم ، هذه البلاد التى عاشت فيها أجيـال ، ونبغ فيها علماء و مؤلفون ، ونهض فيها دعاة ومربون هل يتجرد المسلمون فيهـا عن دينهم ؟ هل يلفظ فيها الاسلام نفسه الأخير ، هل يكتب عليه الفناء ؟

هنالك قام رجل له فضل على كل مسلم فى الهند ، هو الشيخ أحمد بن عبد الأحـــد العمرى السرهنـــدى (٩٧١ ـــ ١٠٣٤هـ) ـــ رحمه الله تعالى ـــ و كان عالماً كبيراً مشاركا فى علوم كثيرة ، و كان إذا أراد أن يكون له مركز كبير علمى كان يمكن أن يتصدر مجلس السلطان أكبر ، و كان هناك من دونه فى العلم و من دونه فى الذكاء ، ولـكنه ملـكته فكرة واحدة : حرام على هذه البلاد أن ترتد عن الاسلام و أن يحرم المسلمون فيها حقهم أن يعيشوا كراماً أحراراً شرفاء ، يزاولون شعـائرهم الدينية ، ويحافظون على خصائصهم وشخصيتهم الاسلامية ، ملكته هذه الفكرة حتى حالت بينه وبين كل لذة ، فوهب نفسه وحياته لها ، ترونه فى رسائله (وأصلها بالفارسية ، وقد نقلت إلى العربية) كيف يبكى دماً وكيف يبكى على الاسلام ـ إن رسائله دافقة

بالحياة، الانسان إذا قرأ هذه الرسائل يشعر بأن فيها شعلة إيمانية، ولهيباً من إيمان وصراحة وحزن، فيقول فى إحدى رسائله، كتبها إلى أحد كبار الدولة «واويلاه، واحزناه وامصيبتاه، إن أتباع محمد عليه الصلاة و السلام الذى هو حبيب رب العالمين، بهذا المكان من الذل والهوان، والكفار والمشركون و الوثنيون يتمتعون بالحرية، و هذا فى عهد رجل يتسمى بالاسلام» إنه ينعزل عن مركز الحكم، يجلس بعيداً ولكنه لم يزل متصلا برجال البلاط والأمراء، يكتب إليهم الرسائل البليغة التى تسيل عذوبة، و تشتعل ناراً فى وقت واحد، و التى تعتبر من أقوى الرسائل الدعوية والاصلاحية فى المكتبة الاسلامية. إنه لم يزل يثير غيرتهم الايمانية و يلهب فيهم جمرة الايمان التى كانت مدفونة تحت الرماد فيزيل عنها التراب، فيقول للواحد منهم «أنت مسلم والحياة عارضة، والملك لا يعيش دائماً، وهذا الحكم لايدوم، اتق الله فى نفسك، اتق الله فى أمتك، اتق الله فى بلادك» هذا كان دأبه على مر الأيام حتى استطاع أن يجر إليه

عدداً كبيراً من الأمراء و الوزراء و كانت سياسة البلاد تمر بمرحلة دقيقة جداً ، لأنه إذا ثار ضد هذا الملك الجبار ، الملك الذى ارتد عن الاسلام ، و قد سمعنا قصة ارتداده و ثورته على الاسلام ، فان معنى ذلك أن هذه البلاد ستذهب إلى الهنادك ، فيستولون عليها لأنهم بالمرصاد ، فلم يوافق على أن يعارض الحكومة بالسيف، لأن هذه الحكومة إذا ضعفت فمعنى ذلك أن الهنادك يستولون عليها ، و أنهم سيخلفون المسلمين ، فكان من الاحتياط و من الحكمة و كان من السياسة ، ألا تضعف شوكة المسلمين المادية و العسكرية ، فاقتصر على الدعوة ، و اقتصر على الرفق و على الحكمة .

فلما مات هذا الرجل خلفه ابنه و خليفته نور الدين جهانكير و كان أحسن سيرة و أسلم عقيدة من أبيه الراحل.

طلب السلطان الامام السرهندى إلى مقره ، و أكد على حاكم سرهند أن يوجهه إليه كيف ما استطاع ، فتوجه الامام مع خمسة من أصحابه ومريديه - كانوا إذ ذاك

عنده - و لما قرع سمع السلطان مجيئ الامام بعث الأمراء والأعيان ليستقبلوه فى الطريق ونصب له خيمة بجوار قصره و طلبه فى البلاط للمقابلة ، و لما دخل عليه فى البلاط لم يأت بالآداب و التقاليد التى كان يلتزم بها الوافدون على السلطان ، فلفت بعض أبناء الدنيا ممن لا يخاف الله نظر السلطان إلى أن الامام لم يراع أدب الدخول عليه ، و لم يأت بالتحية المعتادة للملوك (١) ، فسأله السلطان عن السبب ، فقال إنى لم أزل متقيداً بالآداب والأحكام التى دعا إليها الله ورسوله - ﷺ - ولا أعرف غير هذه الآداب ، فغضب السلطان وقال اسجد لى (٢) ، فقال الإمام ما سجدت لغير الله قط ، ولن أسجد لغيره أبداً ، فتغيظ السلطان و زاد غضبه وأمر بفرض الاقامة الجبرية عليه فى قلعة كواليار(٣) .

(١) كانت هذه التحية تقليداً سائداً فى البلاط منذ عهد الملك أكبر ، و كانت تعد من التأدب بالآداب الملوكية و كانت على ثلاثة أصناف ، أولها الكورنش و هو أن يضع يمينه على جبينه و يطأطىء رأسه إلى الصدر ، و ثانيها التسليم و هو أن يضع ظاهر الكف من يمناه على الأرض ويقوم و يضع باطنه على الرأس ، و ثالثها السجدة كما يسجد فى الصلاة .

(٢) حضرات القدس ص ١١٧ .

(٣) أيضاً ص ١١٦ .

لقد كانت هذه الاقامة الجبرية فى سجن كواليار تنطوى على حكم ومصالح دينية كثيرة تسبب له الحب و القبول فى النـاس و تزيده زكاء نفس و سمو روح ، و إشراق باطن ، فشمر هذا السجين كسجين مصر عن ساق الجد و الاجتهاد فى الدعوة و الارشـــاد فى أولئك المسجونين الذين كانوا معه ، و نادى وراء جدران السجن بأعلى صوته « يا صاحبي السجن أ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » بمـا اهتزت له أركان القلعة و ارتجت الجدران ، وسمع صداه فى الخارج ، يذكر بعض المؤرخين أن آلافا من السجنـاء من غير المسلمين اهتـــدوا على يديه ، و دخلوا بصحبتـــــه و تربيته و إرشاده و دعوته فى الاسلام ، و إن مئات من السجناء والمسلمين تابوا على يديه وبايعوه وتمتعوا بصحبته (١) حتى بلغوا درجات الاحسان .

كان لمرافقته دخل كبير فى نشأة النزعة الدينية الجديدة فى الملك جهانكير و عنايته بتعمير المساجد المنهدمة من جديد ، وشغفه باقامة المدارس الدينية فى المناطق المفتوحة ،

---

(١) كتاب Preaching of Islam (الدعوة إلى الاسلام) لمؤلفه البروفيسور آرنلد Arnold ص ٤١٢ الطبعـة الثـالث . دائرة معارف الأخلاق و الديانات » ص ٧٤٨ ج ٨ .

و ما ظهر منه عام ١٠٢١هـ بمناسبة فتح قلعـة كانكره من عواطف إسلامية ، و إظهار شعائر الاسلام فيها (١) فقد أمر بناء أول مسجد فى القلعة وذبح البقرة ، و هو يدل على حدوث التحول والتقدم فى التدين الذى يمكن معه القول بأنه كان غيضاً من فيض مرافقة الامام السرهندى و صحبته .

و لم يزل الشيخ مذكراً للملك وناصحاً و مشجعاً يرشده و يوجهه و يراسله ، و قد طلب مرة من أمرائه أن يرشح له عدداً من العلماء يذاكرهم فى الأمور الدينية ، فلما علم الشيخ بذلك قال : لا : إن العلماء إذا اجتمعوا فانهم يتنافسون و يتناظرون ، فهذا يفسد الملك ، وهذا الذى حدث فى العهد السابق و أضر بالاسلام ، رجل زاهد فى الدنيا ، متعمق فى الدين راسخ فى العلم ، أفضل من أن يختار عدد من العلماء ، و هم يتصارعون و يتناظرون و يظهرون براعتهم و حذقهم ، و هذا لا أراه الك رأياً ، و كان كما قال ، ولم يزل نور الدين جهانكير يتدرج من صالح إلى أصلح و من حسن إلى أحسن حتى محا كثيراً من آثار أبيه السيئة وأزال كثيراً من بدعه و محاربته للاسلام .

---

(١) انظر « تزك جهانكيرى » ص ٣٤٠ و راجع للتفصيل الباب السابع منه و ليلاحظ أن هذه القلعة كانت قد فتحت على يد قائد هندكى .

و خلف الملك نور الدين جهانكير نجله شهاب الدين الملقب بشاه جهان وهو الملك المسلم الخاشع لله، وهو الذى لما تربع على عرش الطاؤس الذى أنفق عليه الملايين نزل وخر لله ساجداً يثبت عبوديته و إسلامه ويحمد الله على الملك الذى آتاه ، و لم يزل الشيخ و الحبل فى يده فيقبضه و يرخيه ، إذا رأى من المصلحة أن يرخيه أرخاه ، و إذا رأى من المصلحة أن يجره جره .

وخلف الشيخ أحمد ابنه النجيب المتمم لعمله و الأمين على دعوته الشيخ محمد معصوم بن أحمد بن عبد الأحد السرهندى (١٠٠٧-١٠٧٩هـ) وله فضل كبير فى تربية السلطان « عالمكير » أورنك زيب بن شاهجهان الذى يعد من أكبر ملوك المسلمين ، ليس فى الهند فقط بل فى تاريخ الاسلام (يعنى بعد نور الدين و صلاح الدين وبعض ملوك المسلمين الصالحين) هو الذى دون « الفتاوى الهندية » وجعلها قانوناً للدولة ، و هو الذى طبق الأحكام الشرعية بدقة و عناية ، و حفظ القرآن الكريم ، وجمع أربعين حديثاً و شرحها ،

و له عوائد والتزامات لا يقدر عليها كثير من العلماء والعباد فضلا عن الملوك و السلاطين، هذا الرجل قلب تيار الحياة و أرسخ قواعد الاسلام فى هذه البلاد و ربط مصيرهـا بالمسلمين وبالعلم و الدين وأزال خطر زوال الاسلام وجلاء المسلمين ، كما وقع فى أسبانيا قبل قرنين ، و هـذه ناحيـــة من نواحى جهاد الشيخ أحمد و تجديده الأولى .

وبغض النظر عن حياة اورنك زيب الشخصية التى اتفق المؤرخون على أنه كان فيها متديناً ، متورعاً ، متمسكاً بالشريعة ، عاملا بها ، محافظاً على نوافل الطاعات ، فضلا عن الفرائض والواجبات، نكتفى بما يتعلق بالسياسة الشرعية التى فى مملكته الواسعة وتنظيم الشعائر الاسلامية وتنفيذ الأحكام الشرعية، وبماله من أثر عميق فى المجتمع الاسلامى الهندى والاصلاح الاجتماعى .

يقول المؤرخ فى حوادث العـام الثـانى من ولاية السلطان الموافق عام ١٠٦٩هـ :

« أسس التقويم المتبع فى الادارة و الولاية منـــذ عهد السلطان جلال الدين أكبر على أول « فروردى » التى

تدخل فيها الشمس برج الحمل ، و يزدهر الربيع و كان تاريخ جلوس السلطان قريباً من هذا التاريخ ، فوضع التقويم بدءاً من شهر « فروردى » إلى شهر « اسفنديار » (١) ، وسمى الشهور « شهوراً إلهية » ، و لما كان هذا الأمر يشبه طريقة السلاطين المجوس عباد النار ، بدأ السلطان - مراعاة للشريعة الاسلامية - التقويم الهلالى العربى للشهور و السنين لجلوسه و إدارته ومهرجاناته ، و أمر بتقديم التقويم العربى الهلالى على التقويم الشمسى ، وأمر بالغاء الاحتفال بمهرجان نوروز .

و يعلم جميع الناس أن الشهور الهلالية تتغير دائماً ، و تحدث مشاكل و تعقيدات فى استخدام التقويم الهلالى ، و لكن هذا السلطان المتدين لم يبال بمشاكل هذا التقويم ، و ينتهى عن الاحتفال بمهرجان « نوروز » لتشبهها بطريقة عباد النار المجوس - أصلا - و قرر بداية تاريخ الجلوس الثانى بغرة شهر رمضان ، وهكذا بدأ تقويماً جديداً للجلوس ، و أبدل مهرجان نوروز ، بمهرجان عيد الفطر (٢) .

---

(١) و هما شهران فى التقويم الايرانى للقديم .

(٢) أيضاً ص ٨٣—٨٤ .

و يذكر المؤرخ وقف السلطان للدخل الكبير الذى كان يأتى الدولة من طريق غير شرعى ، فيقول :

« أمر السلطان بالغاء « راهدارى » ـ ضريبة الطريق ـ الذى كان يؤخذ على جميع الحدود و الثغور ، و توضع جميع وارداته فى خزانة الدولة ، فكان دخلها و دخل خراج «بلغارى» الذى يسمى « ته بازارى » . . . يزيد على مئات الآلاف و يدخل الخزانة السلطانية ، كما ألغى السلطان جميع الواردات التى كان دخلها من الخانات و الخمارات والغرامات و ما يقدم إلى الموظفين والحكام إظهاراً للشكر وغير ذلك مما يبلغ الملايين من الروبيات ، و كان دخلا كبيراً للدولة » (١) .

كانت الحسبة منصباً خطيراً فى الحكومات الشرعية ، و شعاراً ظاهراً من شعائر الخلافة الاسلامية ، و ألف كثير من العلماء لبيان مسئوليات هذه الوظيفة المهمة و نوعية العمل فيها كتباً بعنوان « الحسبة فى الاسلام » و كانت هذه المهمة الخطيرة مهجورة معطلة فى الحكومات المسلمة فى الهند ، و أحيا السلطان هذه السنة أيضاً .

---

(١) أيضاً ، ص ٩ .

يقول المؤرخ :

« عين السلطان الشيخ عوض وجيه محتسباً ، و أمره بأن ينهى الناس عن جميع المحرمات ، خاصة عن شرب الخمور ، و تناول الحشيش و جميع المسكرات ، و جميع الفواحش ، و يمنعهم - قدر المستطاع - من جميع المسيئات و المنكرات » (١) .

و يقول المؤرخ فى حوادث و وقائع السنوات من عام ١١ للجلوس إلى ٢١ للجلوس ، الموافق عام ١٠٧٨هـ .

« كان السلطان يزداد - كل يوم - اهتماماً باجراء الأحكام الشرعية و تنفيذها ، و مراعاة الأوامر و النواهى الالهية، فكان يصدر فرامين مفصلة لالغاء دخل « راهدارى» و « باندارى » الذى كان يبلغ مئات الآلاف من الروبيات كل عام، و كان يدخل فى الخزانة السلطانية ، و كان يأمر

(١) أيضاً ص ٩٢ ، ذكر مؤلف « نزهة الخواطر » اعتماداً على كتب التاريخ بالفارسية ، أن عالمكير نسخ عام ٦٩ ١هـ ثمانين نوعاً من الخراج والضرائب ، التى كان دخلها السنوى للخزانة السلطانية ثلاثة ملايين روبية .

باغلاق الحانات والخمارات، ومكامن الريبة والفساد » (١).

و يزيد قائلا :

« أمر السلطان بالغاء الرقص و الغناء و نهى عن اجتماع الناس تحت قصر السلطان لزيارته ، و رؤية طلعته من نافذة فى أعلى القصر - و كان هذا تقليداً من التقاليد السلطانية المخترعة ، و يسمى « جهروكه درشن » و ترك نفسه الجلوس على النافذة، استنكاراً لهذ التقاليد غير الشرعية »

كان السلاطين المسلمون فى الهند - حسب معتقدات الهنادك و عادتهم القديمة - يثقون كثيراً بالتنجيم و المنجمين ، و يعينون الأيام و الشهور لأعمالهم الخاصة حسب ما يقرر المنجمون فى ضوء علم التنجيم، فقضى السلطان عالمكير على هذه العقيدة و العادة المتبعة ، و أهم من ذلك أن الأحكام القضائية كانت تقتصر على محاكم الحكام والأمراء وأحكامها فعين السلطان عالمكير قضاة شرعيين وأعطاهم السلطة المطلقة فيما يتعلق بالقوانين الشرعية .

« الشعراء و المنجمون الذين كانت لهم مكانة واعتبار فى الدولة ، (خاصة فى عهد السلطان شاهجهان) منعوا من

---

(١) أيضاً ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ باختصار .

بممارسة أعمالهم و عين القضاة للشؤون الداخلية و المرافعات الجزئية و الكلية، و حصل لهم من التمكن و الاستقلال فى شؤونهم ما بعث الأمراء و أعيان الدولة على الغبطة و الحسد » (١) .

أما الناحية الثانية من نواحى التجديد فقد عارض الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندى البدع والعقائد الشركية والشعائر الجاهلية المجوسية و الفلسفة اليونانية، أشد المعارضة، وهو الذى شن الحرب على فكرة وحدة الوجود التى كان لها سحر عجيب على العقول والنفوس ، و نفوذ عميق فى العلوم و الآداب، و كون معسكراً كبيراً له قيمته و أهميته إزاء معسكر وحدة الوجود الذى كاد يكون المعسكر الوحيد فى الهند وفى البلاد العجمية ، فعارض هذه الفكرة معارضة شديدة وحاربها حرباً شعواء لا هوادة فيها و لا رفق .

و أنا أقرأ لكم طرفاً من إحدى رسائله الخالدة على سبيل المثال :

---

(١) أيضاً ، ص ٢٧١٧ ، و راجع كتاب كذلك (Aurangzeb & His Age) لمؤلفه للفاضل ظهير الدين الفاروقى « أورنك زيب وعصره » الباب بعنوان A. Reformer .

كتب إليه أحد تلاميذه أن الشيخ عبد الكبير اليمنى يعتقد أن الله سبحانه و تعالى يعلم الكليات و لا يعلم الجزئيات ، و هو من ضمن الأفكار و العقائد التى تسربت فى المسلمين عن طريق الفلسفة اليونانية ، فكتب إليه يقول: « يا أخى، إنى لا أستطيع أن أصبر على سماع هذه الخرافات و إن عرقى العمري ينبض ، وإن الدم الفاروقى الذى يجرى فيه يفور (١) كان قائل هذا عبد الكبير اليمنى أو الشيخ ابن عربى الطائى، إن الفتوحات المدنية (٢) أغنتنا عن الفتوحات المكية (٣) نحن نريد محمد العربى لا الشيخ ابن عربى، إننا من أتباع النصوص (٤) لا الفصوص (٥) هذا مثال من الأمثلة الكثيرة .

(١) لا ينسى أن الشيخ أحمد ينتهى نسبه إلى سيدنا عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) .

(٢) يعنى التعليمات النبوية و الأحاديث الصحيحة .

(٣) كتاب مشهور للشيخ ابن عربى .

(٤) يعنى نصوص الكتاب و السنة .

(٥) يشير إلى فصوص الحكم للشيخ ابن عربى و هو يتضمن الشىء الكثير من مثل هذه الأقوال الغريبة .

و الواقع أن عمله التجديدى الأساسى الذى تدور حوله سائر أعماله الاصلاحية التجديدية ، و منبعه الأصيل الذى تتفجر منه ينابيع جميع مآثره الاصلاحية و جهوده الثورية ، و تتحول إلى نهر يجرى فى العالم الاسلامى كله ، هو ذلك العمل الاصلاحى العظيم الذى تجلى فى إعادة الثقة و الايمان إلى قلوب أبناء الأمة الاسلاميــــة بخلود الرسالة المحمدية و حاجة الناس إليها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، و ترسيخ جذور هذه العقيدة المهمة .

و يقول هو نفسه فى رسالة وجهها إلى ابن شيخه محمد عبد الله و هو يصور هذا الوضع المكفهر .

« لقد كثرت البدع و المحدثات فى هذه الأيام كثرة فاحشـــة ، حتى ليخيل للناظر أن بحراً من الظلمات تتلاطم أمواجه ، و أن نور السنة فى هذا البحر الهائج المائج يتلألأ تلألؤ يراعات منتشرة فى ظلمة الليل البهيم » .

لقد كان معين الاسلام الصافى فى الهند - التى لم يزل أساس الاسلام فيها ضعيفاً لأسباب وعوامل تاريخية مختلفة ،

وكانت موطن شعوب مشركة و ديانات وثنية - تتسرب إليه المخلفات و الرواسب من الديانات السائدة ، وكان يخشى أن يغيب هذا الينبوع فى الظلمات المتراكمة ، حتى يضل الخريت و يحار الدليل .

و لذلك لما بدأ الامام السرهندى رحلته التجديدية و كانت أول خطوة خطاها على طريق الأنبياء و على نفس المنهج الذى سار عليه الرسل ، هى الخطوة نحو إصلاح العقائد و تصحيح الاتجاه ، فقد كان إباءه عن سجدة التحية أمام السلطان جهانكير و رفضه لهذه البدعة الشنيعة عنواناً لامعاً فى تاريخ إصلاحه وتجديده ، وقد تناول فى رسائله التى وجهها إلى مختلف أصحابه وأتباعه بيان حقيقة التوحيد بأسلوب واضح مبين ، و عبارات موجزة جامعة رصينة ، و قدم دلائل وبراهين على وحدانية الله - تعالى - وأنه هو المستحق للعبادة وحده ، بأسلوب يدل على رسوخه وعلو كعبه فى هذا العلم ، و قام يدحض الشرك و مظاهره و تقاليده ونهى أصحابه و أتباعه نهياً شديداً عن الأعمال الشركية و العادات

الجاهلية و تقاليد الكفار من اليهود و النصارى و المشركين، إذ أنه لا بداية لعمل الاصلاح و التجديد إلا به ، فضلا عن نهايته و كماله .

وهنا مقتطفات من رسالة مسهبة كتبها إلى امرأة صالحة بايعته وتابت على يده ، وقد تضمنت هذه الرسالة الرد على عامة ما يبتلى به الجهلاء من المشركين خصوصاً النساء منهم، يقول فيها .

« إن تعظيم مظاهر الشرك وأعياد الجاهلية من أعظم أنواع الاشراك بالله ـ عزوجل ـ و أن من يعتقد بصحة دينين و صلاحيتهما فى وقت واحد فهو مشرك ، وأن من يعمل بأحكام الاسلام وأعمال الكفر والشرك فهو مشرك، و لا يتم الاسلام إلا بالبراءة من الشرك ومحادته ومعاداته، إن التوحيد هو الاشمئزاز و النفور من كل شائبة من شوائب الشرك » .

و يقول رحمه الله : « إن الأستعانة بالطواغيت والأصنام فى دفع الأمراض وشفاء الاسقام ـ التى راجت

فى المسلمين وعمت فى دهمائهم ـ عين الشرك و الضلال ، و أن طلب قضاء الحاجات من الآحجار المنحوتة جحود صريح بالله ـ تعالى ـ وعين الكفر ، يقول الله ـ تبارك و تعالى ـ مبيناً حال بعض الغواة الضالين :

« يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت و قد أمروا أن يكفروا به ، و يريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً » .

و إن كثيراً من النساء ـ لغاية جهلهن و ضلالهن ـ يطلبن قضاء حوائجهن من غير الله و يسألن بأسماء ما أنزل بها من سلطان دفع البليات وكشف الكربات، إنهن لأسيرات فى أغلال الشرك و طقوسه و تقاليده .

و تتجلى هذه العقائد الشركية و تشاهد هذه الأعمال و تقاليد الجاهلية ـ بصفة خاصة ـ عند ما ينتشر مرض الجدرى (الذى يعرف فى أوساط النساء فى الهند باسم « سيتله » (١) حيث تقع جميع النساء فى الجهل المطبق ،

(١) اسم إلهة من الالهات المفروضة المتخيلة عند وثنى الهند ، يعتقدون أنها تسبب الجدرى ، و لا يرتفع هذا الوباء ، و لا يشفى المريض إلا إذا أرضيت هذه الآلهة بالنذور و القرابين .

و الكفر الصريح ، ويأتين بأعمال شركية ، وقلما تجد امرأة تتق دقائق هذا الشرك ، ولا تقدم على أى نوع من أنواع الشرك بهذه المناسبة ، اللهم إلا من عصم ربك ».
(ص ٢٢٥ - ٢٢٦)

و قد كانت أكبر أغلوطة فى هذا الصدد ، أغلوطة البدعة الحسنة ، فكان الناس قسموا البدعة قسمين البدعة السيئة ، و البدعة الحسنة ، و كانوا يقولون : إنه ليس كل بدعة سيئة فكثير من البدع حسنة ، استثنيت من إطلاق حديث « كل بدعة ضلالة » .

إن ما قام به الامام السرهندى من معارضة شديدة و استنكار قوى لهذا التقسيم المحدث للبدعة الحسنة و البدعة السيئة فى ثقة وقوة و اعتماد و بأسلوب علمى و استدلال موضوعى ، لايوجد له نظير فى كثير من الأقطار والأدوار فى تاريخ الاصلاح الدينى .

و هكذا استطاع أن يعيد إلى الاسلام مركزه من جديد فى الهند ، ويعيد إلى السنة اعتبارها ويعيد فى المسلمين

الثقة بالمصادر الصحيحة و بالكتاب و السنة ، و أن يكون للاسلام انتفاضة فى الأقطار الاسلامية من شبه القارة الهندية إلى أفغانسان وتركستان ، إلى العراق وسوريا وتركيا ، وينهض جيل جديد من دعاة الاسلام الصحيح و العقيدة السليمة البعيدة من شوائب الفلسفات و الانحرافات وتأثير الديانات والحضارات الجاهلية ، ونشأت جبهة قوية واعية لمعارضة البدع و المحدثات ، و دعوة سافرة إلى العمل بالشريعة المطهرة و السنة السنية البيضاء ، و إقبال عام على الانابة إلى الله و تزكية النفوس ، و تهذيب الأخلاق ، و تجديد صلة العبودية بالله تعالى فى ضوء الكتاب و السنة .

و ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء و الله ذو الفضل العظيم .

